المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

الرسالة التبوكية

زاد المهاجر إلى ربه

الإمام الجليل الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف

بابن قيم الجوزية

٦٩١ — ٧٥١ هـ

قدم له وقرأه

الدكتور محمد جميل غازي

المملكة العربية السعودية — وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

[سبحان ربك رب العزة عما يصفون .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين]

* * *

تلك هى « الرسالة التبوكية » لابن القيم ، رحمه الله !

بدأ فيها مؤلفها بالتعرض لتفسير قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى،ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

ثم انطلق من تفسيره لهذه الآية إلى تفسير مجموعة أخرى من الآيات الكريمة .

ومن خلال هذه الآيات التى وقف أمامها دارساً ومفسراً وضع أيدينا على مجموعة من الفوائد - منها :

التفرقة بين البر والتقوى ، وما بينهما من عموم وخصوص .

وتحديد مفهوم العلم النافع ، والعالم الحق .

وتعريف الإثم ، والعدوان .

وتوضيح معنى (الهجرة) ومبدأها ومنتهاها ، وانقسامها إلى هجرتين ، ثم ماهية الفرار إلى الله ، والفرار من الله ... والهجرة العارضة والدائمة .

كذلك ؛ فإن ابن القيم شرح فى رسالته ؛ الهجرة إلى الله ، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

وتناول ابن القيم فيما تناول موضوع « السعادة » وما هى هذه السعادة ؟ وكيف يصل الإنسان إليها ؟

وبلغ ابن القيم ذروة الإجادة ، وهو يتعرض ويستعرض مسيرة الإنسان إلى ربه . . . وزاده ، ومركبه ، فى هذه المسيرة .

* * *

وتعجب معى إذ تعلم أن هذه الرسالة على صغرها ، قد حوت كل هذه المعانى ــ وغيرها ــ على كبرها .. !

ولكنها طريقة ابن القيم ، وطريقة شيخه شيخ الإسلام فيما يعرضان له من أبواب العلم والمعرفة .. !

وكذلك يكون العالم الحجة الثبت ، واعيا لأمور دينه مستوعباً لها .. !

رحم الله ابن القيم ، وغفر له ...

لقد كان ذا حافظة قوية ، وعقلا واعياً ، ولغـة طيّعة ، وإلماماً بعقيدة السلف ، ومنهجهم فى الفهم والتوجيه !

وأعاننا الله على السير فى طريق الذين أنعم عليهم ، من العلماء العاملين ، ﴿ أولئك على هدًى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

د . محمد جميل غازى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبى بكر، المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه وأرضاه ـ فى كتابه الذى سيره من تبوك[1] ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ـ بعد كلام له سبق :

أحمد الله بمحامده التى هو لها أهل، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه : محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب ﴾[2].

● وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضاً، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لاينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

---

(١) نسبة إلى قرية « تبوك » على حدود الحجاز من جهة الشام.
(١) المائدة : ٢

فأما مابينه وبين الخلق : من المعاشرة والمعاونة والصحبة ، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم ، وصحبته لهم ، تعاوناً على مرضاة الله وطاعته ، التى هى غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة إلا بها ، وهى البر والتقوى ، اللذان هما جماع الدين كله ، وإذا أفرد كل واحد من الإسمين دخل فى مسمى الآخر ، إما تضمناً ، وإما لزوماً ، ودخوله فيه تضمناً أظهر ؛ لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى ، فإنه جزء مسمى البر . وكون أحدهما لايدخل فى الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لايدخل فيه عند انفراد الآخر .

● ونظير هذا : لفظ « الإيمان والإسلام » و « الإيمان والعمل الصالح » و « الفقير والمسكين » و « الفسوق والعصيان » و « المنكر والفاحشة » ، ونظائره كثيرة .

● وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس .

البر والتقوى

ولنذكر من هذا مثالا واحداً يستدل به على غيره ، وهو البر والتقوى . فإن حقيقة البر : هو الكمال المطلوب من الشىء والمنافع التى فيه والخير ، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها فى الكلام .

ومنه « البر » بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب .

ومنه رجل بار ، وبر ، وكرام بررة ، والأبرار .

فالبر : كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد . وفى مقابلته الإثم . وفى حديث النواس بن سمعان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « جئت تسأل عن البر والإثم »[١].

فالإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التى يذم العبد عليها .

فيدخل فى مسمى البر : الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة ، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى . وأكثر مايعبر عن بر القلب ، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته ، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته ، وانشراحه

---

(١) حديث النواس بن سمعان — بكسر السين وفتحها ـ رواه مسلم فى أبواب البر والصلة والآداب (ج ١٦ ص ١١٠ بشرح النووى) عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس بن سمعان الأنصارى قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» وأخرجه أيضا بلفظ « أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة سنة ما يمنعنى من الهجرة إلا المسألة . كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء . قال : فسألته عن البر والإثم . فقال : البر حسن الخلق ـ الحديث » وهذا ليس موافقاً لما ذكر المصنف ، وإنما الذى يوافق ماذكره المؤلف رحمه الله حديث وابصة بن معبد قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه . فقال لى : « ادن ياوابصة فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته . فقال لى : ياوابصة أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت يارسول الله أخبرنى . قال: جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت : نعم، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها فى صدرى ويقول : ياوابصة استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

قال المنذرى فى الترغيب والترهيب : رواه الإمام أحمد بإسناد حسن .

وقوته ، وفرحه بالإيمان . فإن للايمان فرحة وحلاوة ولذة فى القلب ، فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه . وهو من القسم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾[١].

فهؤلاء ـ على أصح القولين ـ مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين ؛ إذ لم يدخل الإيمان فى قلوبهم فيباشرها حقيقة .

• وقد جمع الله خصال البر فى قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾[٢].

• فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هى أصول الإيمان الخمس التى لا قوام للإيمان إلا بها .

وأنها الشرائع الظاهرة : من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة .

---

(١) الحجرات : ١٤ (٢) البقرة : ١٧٧

وأنها الأعمال القلبية التي هى حقائقه ، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين ، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب ، وأصول الإيمان الخمس ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هى خصال التقوى بعينها فقال ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

التقوى

● وأما « التقوى » فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً ، أمراً ونهياً ، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهى وخوفاً من وعيده .

كما قال طلق بن حبيب « إذا وقعت الفتنة فاطفئوها بالتقوى ، قالوا : وما التقوى » قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله » .

● وهذا من أحسن ما قيل فى حد التقوى .

فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان ، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض ، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك ، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب .

ولهذا كثيراً ما يقرن بين هذين الأصلين فى مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » و « ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً »[١] ونظائره .

فقوله « على نور من الله » إشارة إلى الأصل الأول وهو الإيمان الذى هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه .

وقوله « ترجو ثواب الله » إشارة إلى الأصل الثانى وهو الاحتساب ، وهو الغاية التى لأجلها يوقع العمل ، ولها يقصد به .

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه ، وأن البر داخل فى هذا المسمى .

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[٢] ، فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذى لا صلاح له بدونه كما تقدم .

وأما التقوى فهى الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ، ولفظها يدل على هذا . فإنها فعلى ، ومن وقى يقى ، وكان أصلها وقوى ، فقلبوا الواو تاء ، كما قالوا تراث من الوراثة . وتجاه من الوجه ، وتخمة من الوخمة ، ونظائرها فلفظها دال على أنها من الوقاية ، فإن المتقى قد جعل بينه وبين النار وقاية ، والوقاية من باب دفع الضر ، فالتقوى والبر كالعافية والصحة .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

(٢) المائدة : ٢ .

● وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيما فى فهم ألفاظ القرآن ودلالته ، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فإنه هو العلم النافع .

وقد ذم الله تعالى فى كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله .

● فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين .

إحداهما : أن يُدخل فى مسمى اللفظ ما ليس منه ، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ ، فيساوى بين ما فرق الله بينهما .

والثانية : أن يخرج من مسمى اللفظ بعض أفراده الداخلة تحته ، فيسلب عنه حكمه ، فيفرق بين ما جمع الله بينهما .

والذكى الفطن يتفطن لأفراد هذه القاعدة وأمثالها ، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع .

وتفصيل هذا لا يفى به كتاب ضخم .

ومن هذا لفظ : (الخمر) ، فإنه اسم شامل لكل مسكر ، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفى عنها حكمه .

وكذلك لفظ : (الميسر) وإخراج بعض أنواع القمار منه .

وكذلك لفظ : النكاح وإدخال ما ليس بنكاح فى مسماه .

وكذلك لفظ : (الربا) وإخراج بعض أنواعه منه ، وإدخال ما ليس رباً فيه .

وكذلك لفظ : (الظلم والعدل) و (المعروف والمنكر) ونظائره أكثر من أن تحصى .

● والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم : هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملا .

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه . فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنسانى قائماً بعضه ببعضه ، معيناً بعضه لبعضه .

● ثم قال تعالى ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ .

و (والإثم والعدوان) فى جانب النهى نظير : (البر والتقوى) فى جانب الأمر .

والفرق بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر .

الإثم

فالإثم ما كان حراماً لجنسه .

والعدوان ما حرم لزيادة فى قدره وتعدى ما أباح الله منه .

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها : إثم .

ونكاح الخامسة واستيفاء المجنى عليه أكثر من حقه ونحوه : عدوان .

العدوان

فالعدوان : هو تعدى حدود الله التى قال فيها : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[١] .

وقال فى موضع آخر ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾[٢] فنهى عن تعديها فى آية وعن قربانها فى آية . وهذا لأن حدوده سبحانه هى النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام ، ونهاية الشىء تارة تدخل فيه فتكون منه ، وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة . فالاعتبار الأول نهى عن تعديها ، وبالاعتبار الثانى نهى عن قربانها .

---

(١) البقرة : ٢٢٩   (٢) البقرة : ١٨٧ .

فصل

[ما بين العبد وربه]

● فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس ، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاونا على البر والتقوى ، علماً وعملا .

● وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى : فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته ، وهو قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ .

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق .

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط ، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر ، ولا يتم له أداء الواجب الثانى إلا بعزل الخلق من البين ، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية .

● فينبغى التفطن لهذه الدقيقة ، التى كل خلل يدخل على العبد فى أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملا . وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدّس الله روحه « كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس ، ومن لم يكن كذلك لم يزل فى تخبيط ولم يزل أمره فرطاً » .

والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها .

فصـــل

[فى الهجرة إلى الله ورسوله]

• لما فصل عير السفر واستوطن المسافر دار الغربة وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه : أحدث له ذلك نظراً فأجال فكره فى أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق فيه بقية عمره ، فأرشده من بيده الرشد إلى أن أهم شىء يقصده إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله ، فإنها فرض عين على كل أحد فى كل وقت ، وأنه لا انفكاك لأحد عن وجوبها ، وهى مطلوب الله ومراده من العباد .

نوعا الهجرة

إذ الهجرة هجرتان :

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها معلومة ، وليس المراد الكلام فيها .

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ، وهذه هى المقصودة هنا . وهذه الهجرة هى الهجرة الحقيقية وهى الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها .

مبدأ الهجرة ومنتهاها

• وهى هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبـــة غير الله إلى محبته .

ومن عبودية غيره إلى عبوديته .

ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه .

ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه ، وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : ﴿ ففروا إلى الله ﴾[١] .

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

الفرار إلى الله

• وتحت (من) و (إلى) فى هذا سر عظيم من أسرار التوحيد .

فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التى اتفقت عليها دعوة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) الذاريات : ٥٠

الفرار من الله

● وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما فى الكون من المكروه والمحذور الذى يفر منه العبد ، فإنما أوجبته مشيئة الله وحده ، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، ومالم يشأ لم يكن ، وامتنع وجوده لعدم مشيئته . فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شىء إلى شىء وُجد بمشيئة الله وقدره فهو فى الحقيقة فار من الله إليه .

● ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم « وأعوذ بك منك »(١) .

وقوله « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك »(٢) . فإنه ليس فى الوجود شىء يُفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيذ : فارٌّ مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففى الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيذ بالله منه .

---

(١) روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو فى سجوده : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ،وأعوذ بك منك، لاأحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك .

(٢) عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك . لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك ـ الحديث » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذى يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق فى قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ؛ مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه فى حال فراره من الأول خائف منه حذراً أن لا يكون الثانى يفيده منه ، بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدَّر وشاء ما يفر منه ، فإنه لا يبقى فى القلب التفات إلى غيره .

● فتفطَّن إلى هذا السر العجيب فى قوله «أعوذ بك منك» و «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك» فإن الناس قد ذكروا فى هذا أقوالا وقلَّ من تعرَّض منهم لهذه النكتة التى هى لبّ الكلام ومقصوده . وبالله التوفيق .

الهجرة إلى الله

● فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ؛ وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى ؟

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة فى غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

● والمقصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شىء إلى شىء لابد أن

يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر . وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بُلى بهؤلاء الثلاث ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه فى كل وقت أن يهاجر إلى الله ، ولا ينفك فى هجرته إلى الممات .

فصـــل

[الهجرة بين القوة والضعف]

• وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعى المحبة فى قلب العبد ، فإن كان الداعى أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعى ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ، ولا يتحرك لها إرادة .

الهجرة العارضة

• والذى يقضى منه العجب : أن المرء يوسع الكلام ويفرغ المسائل فى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . وفى الهجرة التى انقطعت بالفتح ، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به فى العمر أصلا .

الهجرة الدائمة

• وأما هذه الهجرة التى هى واجبة على مدى الأنفاس ، فإنه لا يحصل فيها علماً ولا إرادة وماذاك إلا للاعراض عما خلق له . والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره . وهذا حال من عَشَت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال . والله المستعان وبالله التوفيق ، لا إله غيره ولا رب سواه .

فصـل

فى الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

• وأما الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلم لم يبق منه سوى اسمه ، ومنهج لم تترك بنيَّات الطريق سوى رسمه ، ومحجة سفَت عليها السوافى فطمست رسومها ، وغارت عليها الأعادى فغوّرت مناهلها وعيونها ، فسالكها غريب بين العباد ، فريد بين كل حى وناد ، بعيد على قرب المكان ، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون ، مستأنس مما به يستوحشون ، مقيم إذا ظعنوا ، ظاعن إذا قطنوا ، منفرد فى طريق طلبه ، لا يقر قراره حتى يظفر به . فهو الكائن معهم بجسده ، البائن منهم بمقصده ، نامت فى طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بنائم ، وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو فى طلبها مشمّر قائم ، يعيبونه بمخالفة آرائهم ، ويزرون عليه إزراءه على جهالاتهم وأهوائهم ، قد رجموا فيه الظنون ، وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾[١] .

﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾[٢] .

نحن وإياكم نموت ، فما   أفلح عند الحساب من ندما

---

(١) التوبة : ٥٢

(٢) الأنبياء : ١١٢

• والمقصود : أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد . وطريقها على غير المعتاد بعيد .

بعيد على كسلان أو ذى ملالة   أما على المشتاق فهو قريب

ولعمر الله ، ما هى إلا نور يتلألأ ، ولكن أنت ظلامه ، وبدر أضاء مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن أنت غيمه وقتامه . ومنهل عذب صاف ، وأنت كدره ومبتدأ لخير عظيم ، ولكن ليس عندك خبره .

فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها ، وحاسب ما بينك وبين الله هل أنت من المهاجرين لها ، أو المهاجرين إليها ؟

تعريف الهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

• فحد هذه الهجرة : سفر النفس فى كل مسألة من مسائل الإيمان ، ومنزل من منازل القلوب ، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى ، ومنبع النور المتلقى من فم الصادق المصدوق الذى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾[١] .

فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته ، وإلا فاقذف بها فى بحر الظلمات ، وكل شاهد عدّله هذا المزكى وإلا فعدّه من أهل الريب والتهمات ، فهذا حد هذه الهجرة .

فما للمقيم فى مدينة طبعه وعوائده القاطن فى دار مرباه ومولده ، القائل :

---

(١) النجم : ٣ ، ٤ .

إنا على طريقة آبائنا سالكون ، وإنا بحبلهم متمسكون ، وإنا على آثارهم مقتدون . ولهذه الهجرة ؟ التي كلَّت[١] عليهم ، واستند في طريقة نجاحه وفلاحه إليهم ، معتذراً بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه ، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحدسه .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاد إلى أرض البطالة ، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة .

هجرتان

● والمقصود : أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهي مقتضى « شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وعن هاتين الهجرتين يسأل كل عبد يوم القيامة ، وفي البرزخ ، ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار .

● قال قتادة : « كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ؟ » .

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين . وقد قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما

---

(١) كذا بالأصل . ولعل صوابه « فهو يعيش كلا عليهم » أي عالة عليهم .

قضيت ويسلموا تسليما ﴾(١) ، فأقسم سبحانه بأجلّ مقسم به — وهو نفسه عز وجل — على أنه لايثبت لهم الإيمان ، ولا يكونون من أهله ، حتى يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع موارد النزاع فى جميع أبواب الدين .

فإن لفظة « ما » من صيغ العموم ، فإنها موصلة تقتضى نفى الإيمان أو يوجد تحكيمه فى جميع ماشجر بينهم .

ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه ، حيث لايجدون فى أنفسهم حرجاً — وهو الضيق والحصر — من حكمه ، بل يقبلوا حكمه بالانشراح ، ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض ، ويشربونه على قذى ، فإن هذا مناف للإيمان ، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر .

● ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر فى حاله ، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ماقلد فيه أسلافه من المسائل الكبار ومادونها ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ﴾(٢).

فسبحان الله ! كم من حزازة فى نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد ؟ وكم من حرارة فى أكبادهم منها ؟ وكم من شجى فى حلوقهم منها ومن موردها ؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذى يسوء ، ويخزى يوم تُبلى السرائر .

---

(١) النساء : ٦٥ (٢) القيامة : ١٤ ، ١٥

● ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى : ﴿ ويسلموا تسليما ﴾(١)، فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين . وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضاً ، وتسليما لاقهراً ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذى هو أحب شيء إليه ، يعلم أن سعادته وفلاحه فى تسليمه إليه ، ويعلم بأنه أولى به من نفسه ، وأبرّ به منها وأقدر على تخليصها .

فمتى علم العبد هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسلم له ، وسلم إليه : انقادت له كل علة فى قلبه ورأى أن لاسعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة ، بل هو أمر انشق القلب واستقر فى سويدائه لاتفى العبارة بمعناه ، ولا مطمع فى حصوله بالدعوى والأمانى .

وكلٌ يدعى وصلا لليلى وليلى لاتقر لهم بذاك

الحب بين العلم والحال

● وفرق بين علم الحب وحال الحب . فكثيراً مايشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده ، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال ؛ وهو مثخن بالمرض ، وبين الصحيح السليم ، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها . وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده .

---

(١) النساء : ٦٥

مافى الآية من تأكيد اتباع الرسول

● وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور فى الآية بوجوه عديدة من التأكيد :

أولها : تصديرها يتضمن المقسم عليه للنفى وهو قوله ﴿لا يؤمنون﴾ وهذا منهج معروف فى كلام العرب ، إذا أقسموا على شىء منفى صدروا جملة القسم بأداة نفى مثل هذه الآية .

ومثل مافى قول الصديق عمر رضى الله عنه « لاها الله – لايعمد إلى أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه » .

وقول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامرى لايدعى القوم أنى أفر

وقال الآخر :

فلا والله لايلقى لما بى ولا لما بهم أبداً دواء

وهذا فى كلامهم أكثر من أن يذكر .

● وتأمل جمل القسم التى فى القرآن المصدرة بحرف النفى تجد المقسم عليه منفياً ومتضمناً للنفى ؟ ولايخرم هذا قوله تعالى : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم﴾(١) .

---

(١) الواقعة : ٧٥ – ٧٧

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفى ماقاله الكفار فى القرآن: من أنه شعر، أو كهانة ، أو أساطير الأولين ، صدر القول بأداة النفى . ثم أثبت له ماقالوه . فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون ، ولكنه قرآن كريم .

ولهذا صرح بالأمرين : النفى والإثبات مثل قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثمَّ أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم ﴾(١).

وكذلك قوله : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾(٢).

• والمقصود : أن افتتاح هذا القسم بأداة النفى يقتضى تقوية المقسم عليه ، وتأكيده وشدة انتفائه .

وثانيها : تأكيده بنفس القسم .

وثالثها : تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشىء من مخلوقاته ، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة .

ورابعها : تأكيده بانتفاء الحرج ، وهو وجود التسليم .

---

(١) التكوير : ١٥ ـ ٢٥ (٢) القيامة : ١ ـ ٤

وخامسها : تأكيد الفعل بالمصدر ، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة لى هذا الأمر العظيم ، وإنه مما يعتنى به ويقرر فى نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير .

حب الرسول

وقال تعالى : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[1] وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين ، وهذه الأولوية تتضمن أموراً .

منها : أن يكون أحب إلى العبد من نفسه ؛ لأن الأولوية أصلها الحب ، ونفس العبد أحب له من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها ، فبذلك يحصل له اسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة ، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ماسواه .

ومنها : أن لايكون للعبد حكم على نفسه أصلا ، بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده ، فليس له فى نفسه تصرف قط إلا ماتصرف فيه الرسول الذى هو أولى به منها .

فياعجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن منصب التحكيم ، ورضى بحكم غيره واطمأن إليه أعظم

---

(١) الأحزاب : ٦

من اطمئنانه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن الهـدى لايتلقى من مشكاته وإنما يتلقى من دلالة العقول ، وأن الذى جاء به لايفيـد اليقين ، إلى غير ذلك من الأقوال التى تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به ، والحوالة فى العلم النافع إلى غيره ، ذلك هو الضلال البعيد ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ماسواه ، وتوليته فى كل شىء وعرض ماقاله كل أحد سواه على ماجاء به ، فإن شهد له بالصحة قبلـه ، وإن شهد له بالبطلان رده . وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الـكتاب ووقفه حتى يتبين أى الأمرين أولى به ؟ .

● فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله ، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة .

أدعياء المحبة

● ومن العجب أن يدعى حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه فى الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها ، والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم إليها ، وعرض ماقاله الرسول عليها ، فإن وافقها قبله ، وإن خالفها التمس وجوه الحيل وبالغ فى رده لياً وإعراضاً .

* * *

كما قال تعالى: ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(١).

● وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها.

قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(٢).

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدواً كان أو ولياً وأحق ماقام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب؛ إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله، مُناف لما بعث به رسوله.

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه. ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده.

---

(١) النساء: ١٣٥ (٢) النساء: ١٣٥

وأولئك هم الوارثون حقاً .

لامن يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له ، يعادى من خالفه ويوالى من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته ، فأين هـذا من القيام بالقسط الذى فرضه الله على كل أحد ؟ وهو فى هذا الباب أعظم فرضاً وأكبر وجوباً ؟

شهداء الله

● ثم قال (شهداء لله) الشاهد هو المخبر ؛ فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول ، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور .

وأمر تعالى أن يكون شهيداً مع القيام بالقسط ، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط وأن تكون لله لا لغيره .

وقال فى الآية الأخرى ﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾[1] فتضمنت الآيتان أموراً أربعة :

أحدها : القيام بالقسط .

الثانى : أن يكون لله .

الثالث : الشهادة بالقسط .

الرابع : أن تكون لله .

---

(١) المائدة : ٨ .

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله .

وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ، ليس هذا موضع ذكره .

● ثم قال تعالى : ﴿ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه الذين هما أصله وأقاربه الذين هم أخص به والصديق من سائر الناس ، فإن كان مافى العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق ، ولاسيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم ، فإنه لايقوم به فى هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ماسواهما .

وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه ، وعكس هذا عدل العبد فى أعدائه ومن يجفوه ، فإنه لاينبغى أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم ، كما لاينبغى أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط ، فلايدخله ذلك البغض فى باطل ولايقصر به هذا الحب عن الحق . كما قال بعض السلف : العادل هو الذى إذا غضب لم يدخله غضبه فى باطل ، وإذا رضى لم يخرجه رضاه عن الحق .

● اشتملت الآيتان على هذين الحكمين : وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء .

● ثم قال تعالى : ﴿ إن يكن غنياً وفقيراً فالله أولى بهما ﴾[1] منكم ،

(١) النساء : ١٣٥

هو ربهما ومولاهما وهما عبيده ، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، فإن الله أولى بهما منكم .

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا ، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغنى والفقير .

أما الغنى تخوفاً على ماله ، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لاشىء له ؛ فتتساهل النفوس فى القيام عليه بالحق فقيل لهم : والله أولى بالغنى والفقير منكم ، أعلم بهذا وأرحم بهذا ، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غنى ولا فقير .

● ثم قال تعالى : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ .

نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

وقوله تعالى : ﴿ أن تعدلوا ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله ، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا ، أو حذر أن تعدلوا ، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه . وعلى قول الكوفيين التقدير أن لاتعدلوا ، وقول البصريين أحسن وأظهر .

اللىّ والإعراض

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق ، محذراً منهما ومتوعداً عليهما.

أحدهما : اللَّى .

والآخر : الإعراض .

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها ، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس ، وتارة يلويها ويحرفها .

اللى مثال الفتل وهو التحريف .

وهو نوعان : لى فى اللفظ ، ولى فى المعنى .

فاللى فى اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق ، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها .

ولى فى كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره ، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبى صلى الله عليه وسلم وغيره ، فهذا أحد نوعى اللى .

والنوع الثانى منه : لى المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم ، وبجهالة ما لم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به ، ونحو هذا من لى المعانى ، فقال تعالى ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

● ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان

واللى نظير تغييرها وتبديلها .

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم .

● والمقصود : أن الواجب الذى لا يتم الإيمان ، بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا به ، مقابلة النصوص بالتلقى والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها ، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللى أخرى .

* * *

الخيرة لله

● وقال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[1] فدل هـذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله فى كل مسألة من المسائل حكم طلبى أو خبرى ، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحـكم فيذهب إليه ، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلا ، فدل على أن ذلك مناف للايمان .

* * *

(١) الأحزاب : ٣٦ .

• وقد حكى الشافعى رضى الله تعالى عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام فى صحة ما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه .

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلا عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها ، عياذاً بالله من الخذلان .

• وقال تعالى ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾[1] .

فأخبر سبحانه أن الهداية فى طاعة الرسول لا فى غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفى بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم ، كما يغلط فيه كثيراً من الناس ويظن أنه محتاج فى تقريره الدلالة معه لا تقرير كون المفهوم حجة . بل هذا من الأحكام التى ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها ، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه ؛ وإلا لم يكن شرطاً له .

---

(١) المائدة : ٩٢ .

إذا ثبت هذا : فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته .

• وفى إعادة الفعل فى قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول ، سر لطيف وفائدة جليلة ، سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى .

• وقوله تعالى ﴿ فإن تولوا فإنما عليه ما حمل ﴾ .

الفعل للمخاطبين . وأصله فإن تتولوا ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

والمعنى : أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم .

كما ذكره البخارى فى صحيحه عن الزهرى قال : « من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم » .

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه .

فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم .

وإنما حمل أداء الرسالة إليكم .

﴿ وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[1] ليس عليه هداهم وتوفيقهم .

• وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

---

(١) النور : ٥٤ .

وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[١] .

النداء بالإيمان

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله .

• وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر ، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذى نودوا به وخوطبوا به ، كما يقال : يامن أنعم الله عليه وأغناه من فضله ، أحسن كما أحسن الله إليك : ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم ، ويا أيها الحاكم احكم بالحق ونظائره .

• ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب فى القرآن بالشرائع كقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾[٢] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة ﴾[٣] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[٤] .

ففى هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين ، فالإيمان يقتضى منكم كذا وكذا ، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه .

---

(١) النساء : ٥٩ .
(٢) البقرة : ١٨٣ .
(٣) الجمعة : ٩ .
(٤) المائدة : ١

• ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾[١] .

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر ، وسلط عليهما عاملا واحداً . وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضى عكس هذا ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . ولـكن الواقع هنا فى الآية المناسب .

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه فى القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة .

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن فى القرآن ، وإلا فلا تجب طاعته فيه .

كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه ألا وإنى أوتيت الـكتاب ومثله معه » .

طاعة أولى الأمر

• أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول ؛ لا طاعة مفردة مستقلة ، كما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى . فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة » .

---

(١) النساء : ٥٩ .

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى ﴿ فردوه إلى الله والرسول ﴾ ولم يقل ﴿وإلى الرسول ؟ ﴾ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول ، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله ، وما يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو بعينه حكم الله .

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعنى كتابه فقد رددتموه إلى رسوله . وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله ، وهذا من أسرار القرآن .

من هم أولو الأمر

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى فى أولى الأمر ، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان :

إحداهما : أنهم العلماء .

والثانية : أنهم الأمراء .

والقولان ثابتان عن الصحابة فى تفسير الآية ، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً ، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذى بعث الله به رسوله ، فإن العلماء ولاته حفظاً وبياناً وذباً عنه ورداً على من ألحد فيه وزاغ عنه .

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكفرين ﴾(١) فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم .

---

(١) الأنعام : ٨٨ .

والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به ، وأخذهم على يد من خرج عنه .

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنسانى تبع لهما ورعية .

● ثم قال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾(١) .

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع فى كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله ، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية ، فلا يدخل العبد فى الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينتفى المشروط بانتفائه ، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله فى موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بيانا وشفاء ، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها ، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به .

● قال الله تعالى ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىَّ عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ﴾(٢) .

(١) النساء : ٥٩ .
(٢) الأنفال : ٤٢ .

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته .

سعادة الدارين

● ثم قال تعالى ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ أى هذا الذى أمرتكم به من طاعتى وطاعة رسولى وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه إلىّ وإلى رسولى خير لكم فى معاشكم ومعادكم ، وهو سعادتكم فى الدارين ، فهو خير لكم وأحسن عاقبة .

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله ، هو سبب السعادة عاجلا وآجلا . ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر فى العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته ، وكل خير فى العالم فإنه بسبب طاعة الرسول .

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها ، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه ، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن فى الأرض شر قط ، وهذا كما أنه معلوم فى الشرور العامة والمصائب الواقعة فى الأرض ، فكذلك هو فى الشر والألم والغم الذى يصيب العبد فى نفسه ، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ، ولأن طاعته هى الحصن الذى من دخله كان من الآمنين ، والكهف الذى من لجأ إليه كان من الناجين .

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والخروج عنه .

وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد فى معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علماً والقيام به عملا .

كمال السعادة

- وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين :

أحدهما : دعوة الخلق إليه .

والثانى : صبره واجتهاده على تلك الدعوة .

الكمال الإنسانى

- فانحصر الكمال الإنسانى على هذه المراتب الأربعة :

أحدها : العلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثانية : العمل به .

والثالثة : نشره فى الناس ودعوتهم إليه .

والرابعة : صبره وجهاده فى أدائه وتنفيذه .

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقاً :

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم   فقد وضحت للسالكين عيانا

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب﴾[(١)] .

فهذا نص صريح فى أن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحى ، فيا عجباً ! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة ؟ ولكن ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ .

فأى ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحى ، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلتان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

● وقال تعالى ﴿ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ماتذكرون﴾[(٢)] فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره . فما هو إلا اتباع المنزل . واتباع أولياء من دونه . فإنه لم يجعل بينهما واسطة . فكل من لا يتبع الوحى فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله ، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به .

● وقال تعالى ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ، ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر

---

(١) سبأ : ٥٠ . (٢) الأعراف : ١-٣ .

بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا)(١) .

فكل من اتخذ غير الرسول ، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه قائل هذه المقالة لا محالة . ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان . إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان .

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة .

كما قال الله تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾(٢) .

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾(٣) تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك . واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم . واعترفوا بأنهم لا عذر لهم فى ذلك ، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ وفى بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية . وبالله التوفيق .

● وقال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ،

(١) الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) الزخرف : ٦٧ .
(٣) الأحزاب : ٦٦ ـ ٦٨ .

أولئك ينالهم نصيبهم من الـكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلـكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لـكلٍّ ضعف ولـكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لـكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تـكسبون ﴾(١) .

فليتدبر العاقل هذه الآيات ، وما اشتملت عليه من العبر .

الصنفان المبطلان

وقوله تعالى ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ ذكر الصنفين المبطلين .

أحدهما : منشىء الباطل والفرية وواضعها وداعى الناس إليها .

والثانى : مكذب بالحق .

فالأول : كفره بالافتراء وإنشاء الباطل .

والثانى : كفره بجحود الحق .

وهذان النوعان يعرضان لـكل مبطل . فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله ، وصد الناس عن الحق استحق تضعيف العذاب لـكفره وشره .

ولهذا قال تعالى ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً

---

(١) الأعراف : ٣٧ ـ ٣٩ .

فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[١] فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين : عذاباً بكفرهم وعذاباً بصدهم عن سبيله .

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب .

كقوله تعالى ﴿ والكافرين لهم عذاب أليم ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ يعنى ينالهم ما كتب لهم فى الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك .

﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ﴾ زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ﴾ ادخلوا فى جملة هذه الأمم ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك ، قال الله تعالى ﴿ لكل ضعف ﴾ من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف .

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا

---

(١) النحل : ٨٨ .

ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا ، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا ، وترك الحق الذى أتتكم به الرسل . فأى فضل كان لكم علينا ، وقد ضللتم كما ضللنا ، وتركتم الحق كما تركنا ، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين . فأى فضل كان لكم علينا ؟

﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ فلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة ، لو صادفت من القلوب حياة . فإن هذه الآية وأمثالها ، مما يذكر قلوب السائرين إلى الله ، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر .

فصـل

[معركة الأتباع والمتبوعين]

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشركين فى الضلالة .

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم ، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم ، فهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار ﴾[1] .

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم ، يزعمون أنهم يحبونهم ، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرءون منهم يوم القيامة ، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم .

● وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم ، فإن أعماله ، كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب ، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة ، وموالاة كانت لغير الله تعالى ، ولا يبقى إلا السبب .

---

(١) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

الواصل بين العبد وربه ، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة والتقريب والأبعاد ، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره ، وترك ماخالف ما جاء به ، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به ، وتجريد متابعته تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلا عن الشركة بينه وبين غيره ، فضلا عن تقديم قول غيره عليه .

● فهذا هو السبب الذى لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هى النسبة التى بين العبد وبين ربه ، وهى نسبة العبودية المحضة ، وهى آخيته[1] التى يحول ما يحول ثم إليها مرجعه .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى
وحنينـــــه أبداً لأول منزل

وهذه هى النسبة التى تنفع العبد ، فلا ينفعه غيرها فى الدور الثلاثة : أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، فلا قوام له ، ولا عيش ولا نعيم ، ولا فلاح إلا بهذه النسبة . وهى السبب الواصل بين العبد وبين الله ، ولقد أحسن القائل :

---

(١) الآخية (كآنية) عود يعرض فى حائط أو فى حبل يدق طرفاه فى الأرض ويبرز طرفه كالحلقة ، ويشد فيها الدابة .

إذا تقطع حبل الوصــل بينهم

فللمحبين حبل غــير منقطع

وإن تصدع شمل القوم بينهم

فللمحبين شمــل غــير منصدع

● والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التى كانت بين الخلق فى الدنيا كلها ، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التى بين العبد وبين الله فقط ، وهو سبب العبودية المحضة التى لا وجود لها ولا تحقيق بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾[1] .

● فهذه هى أعماله التى كانت فى الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلها الله هباءً منثوراً . ولا ينتفع منها صاحبها بشىء أصلا ؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشىء ، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله ، وقد سعد أهل السعى النافع بسعيهم .

---

(١) الفرقان : ٢٣ .

فصل

[الأتباع السعداء]

• فهذا حكم أتباع الأشقياء ، فأما أتباع السعداء فنوعان :

أتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم ، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و كل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة . ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط ، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل : التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط ، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان ، وهو ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

الإحسان فى التبعية

• وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع فى شىء والمخالفة فى غيره ، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان .

وأن الباء هاهنا للمصاحبة .

والإحسان والمتابعة شرط فى حصول رضاء الله عنهم وجناته .

وقد قال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾[١] .

● فالأولون : هم الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبوه .

والآخرون : هم الذين لم يلحقوهم ، وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة ، فيكون التأخر وعدم اللحاق فى الفضل والرتبة ، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق فى الرتبة ، والقولان كالمتلازمين ، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا فى الفضل ولا فى الزمان ، فهؤلاء الصنفان هم السعداء .

وأما من لم يقبل هدى الله الذى بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾[٢] .

● وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدى فى قوله صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت

---

(١) الجمعة : ٢ـ٤

(٢) الجمعة : ٥

كلأ . فذلك مثلُ من فقه فى الدين فنفعه ما بعثنى الله به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

الغيث والعلم

● فشبه صلى الله عليه وسلم العلم الذى جاء به بالغيث لأن كلا منهما سبب الحياة ، فالغيث سبب حياة الأبدان ، والعلم سبب حياة القلوب .

وشبه القلوب بالأودية كما فى قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها ﴾(١) .

الأرض والغيث

● وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث .

إحداها : أرض زكية قابلة للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيث ارتوت ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج .

فذلك مثل القلب الزكى الذكى ، فهو يقبل العلم بذكائه ، فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بزكائه ، فهوقابل للعلم ، مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه .

والثانية : أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه ، فهذه تنفع الناس لورودها والسقى منها والازدراع .

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذى يحفظه كما سمعه ، فلا تصرف فيه ، ولا استنبط ، بل للحفظ المجرد فهو يؤدى كما سمع ، وهو من القسم الذى قال

---

(١) الرعد : ١٧

النبي صلى الله عليه وسلم : « فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه ، ورب حامل فقه غير فقيه » .

فالأول : كمثل الغنى التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء .

والثانى : مثل الغنى الذى لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه .

والأرض الثالثة : أرض قاع ، وهو المستوى الذى لا يقبل النبات ، ولا يمسك ماء ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشىء .

فهذا مثل القلب الذى لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التى لا تنبت ولا تحفظ ، وهو مثل الفقير الذى لا مال له ، ولا يحسن يمسك مالا .

فالأول : عالم معلم ، وداع إلى الله على بصيرة ، فهذا من ورثة الرسل .

والثانى : حافظ مؤد لما سمعه ، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر .

والثالث : لا هذا ولا هذا ، فهو الذى لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً .

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق فى الدعوة النبوية ومنازلهم . منها قسمان : قسم سعيد وقسم شقى .

فصل

[أطفال المؤمنين]

• وأما النوع الثانى من الأتباع : فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف فى دار الدنيا ، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم .

وقال الله تعالى فيهم ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾[(١)] .

• أخبر سبحانه أنه ألحق الذرية بآبائهم فى الجنة كما أتبعهم إياهم فى الإيمان .

ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ .

والضمير عائد إلى الذين آمنوا .

أى وما نقصناهم من عملهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم ؛ فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل ، بل وفيناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم .

• ثم لما كان هذا الإلحاق فى الثواب والدرجات فضلا من الله ، فربما

---

(١) الطور : ٢١

وقع فى الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصل لهم فى حكم العدل ، فلما اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة ، كان كل عامل رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره شيء . فالإلحاق المذكور إنما هو فى الفضل والثواب لا فى العدل والعقاب ، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه التى يختص الله بفهمها من شاء .

● فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم : أشقياؤهم وسعداؤهم .

السعداء المتبوعين والأتباع .

والأشقياء المتبوعين والأتباع .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر فى أى الأقسام هو ، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة ، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده ، والله ولى التوفيق والنجاح . وإن كان من قسم شقى انتقل منه إلى القسم السعيد فى زمن الإمكان قبل أن يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا .

فصل

[سفر الهجرة]

• والمقصود بهذا أن من أعظ التعاون على البر والتقوى والتعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعليما وإرشاداً ومودة .

ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع ، وأقبل الله إليه بقلوب عباده ، وفتح على قلبه أبواب العلم ، ويسره لليسرى .

ومن كان بالضد فبالضد .

زاد المسافر

• فإن قلت : قد أشرت إلى سفر عظيم وأمرجسيم ، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه ؟

قلت : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ولا زاد له سواه ، فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالقين .

فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسى يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[1] فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسى بعضهم

---

(١) الزخرف : ٣٩ .

ببعض في العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمّت صارت مسلاة ، وتأسى بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة البـاكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولـكن أسلى النفس عنه بالتأسى

فهذا الروح الحاصل من التأسى معدوم بين المشتركين فى العذاب يوم القيامة .

طريق السفر

• وأما طريقه : فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فلا يُنال بالمنى ، ولن يدرك بالهوينا ، وإنما هو كما قيل :

فخض غمرات الموت واسمُ إلى العلا لـكى تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير فى نفس تخاف من الردى ولا همة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

أحدهما : أن لا يصبو فى الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ، ويجعله صريعاً فى الأرض .

والثانى : أن تهون عليه نفسه فى الله ؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال ، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له هذان

الأمران إلا بالصبر ، فمن صبر قليلا صارت تلك الأهوال ريحاً رخاء فى حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها ، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .

مركب المسافر

● وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته ، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه ، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به ، والانطراح بين يديه انطراح المسلوم المكسور الفارغ الذى لا شىء عنده ، فهو يتطلع إلى قيمه ووليه أن يجدّه ويلم شعثه ، ويمده من فضله ويستره ، فهذا الذى يرجى له أن يتولى الله هدايته ، وأن يكشف له ما خفى على غيره من طريق هذه الهجرة ومغازها .

فصل

[التدبر والتفكر فى آلاء الله]

• ورأس الأمر وعموده فى ذلك ، إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله ، حيث تستولى على الفكر وتشغل القلب . فإذا صارت معانى القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه ، وصار له التصرف ، وصار هو الأمير المطاع أمره ، فحينئذ يستقيم له سيره ، ويتضح له الطريق ، وتراه ساكناً وهو يبارى الريح ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

(١) النمل : ٨٨ .

فصل

[أفلا يتدبرون القرآن ؟]

• فإن قلت : إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لى بابه ، وا كشف لى حجابه ، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه ؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل فى البيان غير ما ذكروه ؟

قلت : سأضرب لك أمثالا تحتذى عليها وتجعلها : إماماً لك فى هذا المقصد .

قال الله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم ﴾(١) .

فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها . فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم فى صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم ، وإنما امرأته عجبت من ذلك ، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك ـ ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

---

(١) الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠

● فاسمع الآن بعض ما فى هذه الآيات من أنواع الأسرار .

وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم .

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها .

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة .

وكيف تضمنت علماً عظيما من أعلام النبوة .

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال ، التى ردها إلى العلم والحكمة .

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ، ثم أفصحت وقوعه .

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة .

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما .

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله ، وعلى اليوم الآخر .

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من فى قلبه خوف من عذاب الآخرة ، وهم المؤمنون بها .

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات .

● فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة :

قال الله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ .

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام ، وليس المراد بها حقيقة

الاستفهام ، ولهذا قال بعض الناس : إن (هل) فى مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التى تقتضى التحقيق . ولـكن فى ورود الـكلام فى مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ، ومعنى بديع ، فإن المتـكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغى الاعتناء به ، وإحضار الذهن له ، صدر له الـكلام بأداة الاستفهام ، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به ، فتارة يصدره بألا ، وتارة يصدره بهل ، فقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إما مذكراً به ، وإما واعظاً له مخوفاً ، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به ، وإما مقرراً له .

فقوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾[1] و ﴿هل أتاك نبأ الخصم﴾[2] و ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾[3] و ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾[4] متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته .

ففيه أمر آخر .

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة ، فإنه من الغيب الذى لا تعلمه أنت ولا قومك . فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟

فانظر ظهور هذا الـكلام بصيغة الاستفهام ، وتأمل عظم موقعه من

---

(١) طه : ٩
(٢) ص : ٢١
(٣) الغاشية : ١ .
(٤) الذاريات : ٢٤ .

جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة فى ذروتها العليا .

وقوله ﴿ ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم .

فإن فى ﴿ المكرمين ﴾ قولين .

أحدهما : إكرام إبراهيم لهم ، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف .

والثانى : أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه ؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له ، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم .

وقوله ﴿ فقالوا سلاماً قال سلام ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به ، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره : سلمنا عليك سلاماً . وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة إسمية تقديره : سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم ، ولا ريب أن الجملة الإسمية تقتضى الثبوت واللزوم ، والفعلية تقتضى التجدد والحدوث ، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن .

ثم قال (قوم منكرون) وفى هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان فى المدح .

أحدهما : أنه حذف المبتدأ والتقدير : أنتم قوم منكرون ، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكرهه بل يقول « ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا » .

(الثانى) قوله (قوم منكرون) فحذف فاعل الإنكار وهو الذى كان أنكرهم كما قال فى موضع آخر (نكرهم) ولا ريب أن قوله (منكرون) ألطف من أن يقول أنكرتم .

وقوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف .

منها قوله ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء . وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء ، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ؛ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه ، فلفظة (راغ) تنفى هذين الأمرين . وفى قوله تعالى ﴿ إلى أهله ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ، ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم .

وقوله ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح :

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه .

الثانى : أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا .

الثالث : أنه سمين ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به ، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره .

وقوله (إليهم) متضمن المدح وآداباً أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدى الضيف ، بخلاف من يهيء الطعام فى موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه .

وقوله (ألا تأكلون ؟) فيه مدح وآداب أخر ؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله (ألا تأكلون) وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف ، بخلاف من يقول : ضعوا أيديكم فى الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا .

وقوله (فأوجس منهم خيفة) لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر ، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به ، فلما علموا منه ذلك (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل ، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت : عجوز عقيم لا يولد لمثلى ، فأنى لى بالولد ؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده . وقد بين سبحانه هذا فى سورة هود فى قوله تعالى ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾(١) وهذه هى القصة نفسها .

وقوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها ، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار .

---

(١) هود : ٧١

وقوله ﴿عجوز عقيم﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الـكلام على ما يتأدى به الحاجة ، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم ، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره ، وأما فى سورة هود ، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالتعجب .

وقوله تعالى ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ متضمن لإثبات صفة القول له .

وقوله ﴿إنه هو الحـكيم العليم﴾ متضمن لإثبات صفة الحـكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ماخلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته ، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته .

والعلم والحـكمة متضمنان لجميع صفات الـكمال ، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر ، وسائر الصفات التى يستلزمها العلم التام .

والحـكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ، ووضع الأشياء فى مواضعها على أحسن وجوهها ، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب .

كل هذا العلم من اسمه الحـكيم كما هى طريقة القرآن فى الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحـكمة : والإنـكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلا ، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب

والعقاب ، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل ، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته .

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك ، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى ، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه .

ومن تأمل أدلة المعاد فى القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها ، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة ، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس .

وإن ساعد التوفيق كتبت فى ذلك سفراً كبيراً ، لما رأيت فى الأدلة التى أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف ، وحسن البيان ، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ؛ ويكثر معه اليقين ، بخلاف غيره من الأدلة ، فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل .

● والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته . واختصت هذه القصة بذكر هذين الإسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة ، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد ، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة ، فذكر فى الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته فى وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة .

● ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط ، وإرسال الحجارة المسومة عليهم . وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم ، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم ، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم .

ثم قال تعالى ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾(١) ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة ، فهو إخراج نجاة من العذاب ، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً .

وقوله تعالى ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر ، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين ، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط ، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم ، وليست خيانة فاحشة ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً ، وليست من المؤمنين الناجين .

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها ، تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد .

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو : إن الإسلام أعم من

---

(١) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦

الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص ، وقاعدة الاستثناء تقتضى العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود ، والمؤمنين غير مستثنين منه ، بل هم المخرجون الناجون .

وقوله تعالى ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التى فعلها فى هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله ، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ، ويخشى عذاب الله تعالى .

كما قال الله تعالى فى موضع آخر ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾(٢) فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول : هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة .

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذى ينتفع بالآيات والمواعظ .

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام فى معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) هود : ١٠٣

(٢) الأعلى : ١٠

فصل

[الرفيق والطريق]

● والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقاً يأنس به فى السفر ، فلا يجد إلا معارضاً مناقضاً ، أو لائماً بالتأنيب مصرحاً ، أو فارغاً من هذه الحركة معرضاً ، وليت كل ما ترى هكذا ، فلقد أحسن إليك من خلاك طريقك ولم يطرح شره عليك ، كما قال القائل :

إنا لفى زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

فإذا كان هذا المعروف من الناس . فالمطلوب فى هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك اللائمة والاعتراض ، إلا ما عسى أن يقع نادراً فيكون غنيمة باردة لا قيمة لها .

ولا ينبغى أن لا يتوقف العبد فى سيره على هذه الغنمية بل يسير ولو وحيداً غريباً ، فانفراد العبد فى طريق طلبه دليل على صدق المحبة .

● ومن نظر فى هذه الكلمات التى تضمنتها هذه الورقات ، علم أنها من أهم مايحصل به التعاون على البر والتقوى ، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله ، وهو الذى قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه فى طلب العلم .

وشهد الله وكفى بالله شهيداً ، ولو توافى أحداً منهم لقابلها بالقبول ولبادر

إلى تفهمها وعدَّها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه ، فإن غير هذا من جريانات الركب الخيرية ، وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهى فى غاية الرخص لكثرة جالبها ، وإنما الهدية النافعة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم .

الموتى الأحياء ، والأحياء الموتى

● ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم فى العالم أحياء ، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده ، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم فى الناس أموات ، فإنهم يقطعون عليه طريقه ، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة ، وأوفق له من هذه المفارقة ، فقد قال بعض السلف : شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم .

فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه ، فنظره قاصر وهمته واقفة عند التشبه بهم ، ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا ، حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم

● فمتى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة ، ومحاسنهم وآثارهم الجميلة فى العالم موجودة ، استحدث بذلك همة أخرى وعملا آخر ، وصار بين الناس غريبا ، وإن كان فيهم مشهوراً ونسيباً ، ولكنه

غريب محبوب يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو فيه ؛ يقيم لهم المعاذير ما استطاع ، ويمحضهم بجهده وطاقته ، سائراً فيهم بعينين : عين ناظرة إلى الأمر والنهى . بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم ، ويؤدى لهم الحقوق ويستوفيها عليهم . وعين ناظرة إلى القضاء والقدر ، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم ، ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع ، وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته ، وقفاً عند قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[1] متدبراً لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم . فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طباعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم .

● فهذا ما منهم إليه ، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف ، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه ، وهو ما أمر الله به . وأما ما يتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها .

فأى كمال للعبد وراء هذا ؟ وأى معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة ؟ فلو فكر الرجل فى كل شر يلحقه من العالم . أعنى الشر الحقيقى الذى لا يوجب له الرفعة والزلفى من الله — وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها ، وإلا فمع القيام بها فكل ما يحصل له من الناس

(١) الأعراف : ١٩٩

فهو خير له وإن شراً فى الظاهر ، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيراً وإن ورد فى حالة شر وأذى .

كما قال الله تعالى ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾[١] .

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾[٢] وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق ، فإنهم إما يسيئوا فى حق الله وفى حق رسوله ، فإن أساءوا فى حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم ، وإن أساءوا فى حقى فاسألنى أغفر لهم واستجلب قلوبهم ، واستخرج ما عندهم من الرأى بمشاورتهم ، فإن ذلك أحرى فى استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة ، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك ، بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك ، فإن الله يحب المتوكلين .

● فهذا وأمثاله من الأخلاق التى أدب الله بها رسوله وقال تعالى فيه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٣] قالت عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء .

أحدها : أن يكون العود طيباً ، فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة

---

(١) النور : ١١
(٢) آل عمران : ١٥٩
(٣) القلم : ٤

يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علماً وإرادة وعملا ، بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد ، فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر .

الثانى : أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعى البطالة والغى والهوى ، فإن هذه الأمور تنافى الكمال ، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة .

الثالث : علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم ، والزجاجة والجوهرة :

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذى سبقت لهم من ربهم الحسنى ، وتمت لهم العناية .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً أبداً إلى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين .

دليل الرسالة

ص

٢١٠،٤

أ.م.ز. ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبى بكر بن أيوب ، أبو عبد الله .

زاد المهاجر إلى ربه ، قدم له وقرأه محمد جميل غازى .

القاهرة ، مطبعة المدنى ، د . ت .

٨٠ ص ، ٢٤ سم .